محاضرة بعنوان:

أصول التاريخية لآباء بني إسرائيل:

The origins of history for the fathers of the Israelites

المادة : التاريخ القديم
المرحلة : الاولى

إعداد:
م. د. مجيد جاسم محمد أحمد الشعيبي
أستاذ تاريخ الأديان – رئاسة جامعة الأنبار
كلية التربية للبنات

في الوقت الذي كان فيه المحرر التوراتي يرسم في التوراة، ولا سيما في سفر التكوين، خارطة لشعوب المنطقة التي عاش الأسلاف العبرانيون بينها، كان يرسم أيضاً صورة لإسرائيل كشعب واحد متسلسل من سلف واحد، ويجذرها في ماضٍ رومانسي سابق على التاريخ. فسلسلة قصص الآباء تنتمي إلى مجال الأدب أكثر من انتمائها إلى مجال التاريخ الموثَّق، ولا يمكن اعتبارها بحال من الأحوال سجلاً لحياة أشخاص من لحم ودم عاشت قبل ألف سنة من الزمن الذي كان المحررون التوراتيون عاكفون فيه على تدوين قصة إسرائيل. إلا أن هؤلاء لم يكونوا يبتكرون كل شيء من بنات أفكارهم، بل كانوا يستلهمون موروثات قديمة لدى قبائل الشمال (منطقة إسرائيل) وقبائل الجنوب (منطقة يهوذا) بخصوص أصولها وأسلافها المؤسسين خرافيين كانوا أم حقيقيين، شأنهم في ذلك كشأن قبائل الجزيرة العربية التي حافظت على موروث راسخ مفاده أن عرب الشمال ينتمون إلى سلف مؤسس يُدعى عدنان، وعرب الجنوب ينتمون إلى سلف آخر يُدعى قحطان.

إننا نعرف الآن على وجه اليقين من خلال نتائج التنقيب الأثري التي قام بها الآثاريون الإسرائيليون منذ سبعينيات القرن العشرين في مناطق المرتفعات الفلسطينية، أنَّ منطقة المرتفعات الوسطى أو المركزية (إسرائيل)، قد جرى استيطانها خلال عصر الحديد الأول (١٢٠٠–١٠٠٠ ق. م) قبل منطقة المرتفعات الجنوبية يهوذا)، وذلك بعد فترة الفراغ السكاني

التي دامت خلال معظم عصر البرونز الأخير (١٥٥٠-١٢٠٠ ق. م)، وأنها احتوت خلال القرن العاشر على نحو ٢٠٠ قرية زراعية. أما منطقة المرتفعات الجنوبية فكانت متخلخلة بالسكان خلال الفترة نفسها ولم تحتوِ حتى أواخر القرن العاشر على أكثر من عشرين قرية زراعية. وهذا يعني أن قبائل الجنوب لم تشترك في أصل واحد مع قبائل الشمال، كما أن قبائل الشمال لم تكن من أصل واحد أيضاً لأن استيطان المرتفعات الوسطى قد جرى بشكل بطيء وعلى مدى قرنين من الزمان من قِبَل قبائل ذات أصول متنوعة. وقد احتفظت كل قبيلة بموروث عن سلفٍ مؤسس تسمّت باسمه، ثم جاء محررو سفر التكوين الذين ينتمون إلى قبيلة يهوذا فجمعوا هذه الموروثات في سلسلة نسب واحدة تحتوي على مراتبية قرابة بين القبائل المتنوعة، تُعلي من شأن يهوذا وتجعلها المقدمة على الجميع.

ولننظر الآن إلى خط النسب الرئيسي الذي يربط بين الأب الأول أبرام والأسباط الاثني عشر بعد استبعاد خطوط النسب الفرعية، لنلاحظ وجود ثلاث سلاسل قصص يبدو أنها كانت مستقلة من حيث الأصل ثم جُمعت فيما بعد في سلسلة واحدة ربطتها إلى بعضها وهي: سلسلة إبراهيم، وسلسلة إسحاق، وسلسلة يعقوب. وكل واحدة من هذه السلاسل قد جرت على مسرح جغرافي معين، فقد ارتبط أبرام بمدينة حبرون (= الخليل) في المنطقة الجنوبية من مرتفعات يهوذا، وارتبط إسحاق بمدينة بئر السبع في أقصى جنوب المرتفعات على حافة الصحراء، أما يعقوب فعلى الرغم من مولده في بئر السبع موطن أبيه إسحاق وقضائه شبابه المبكر هناك، إلا أنه ارتبط فيما بعد بالمنطقة الشمالية حيث تغير اسمه إلى إسرائيل، وبمنطقة شرقي الأردن حيث وُضع الرجم الفاصل بينه وبين خاله لابان الآرامي. هذه الروابط المتنوعة للآباء تعطينا مفتاحاً لمعرفة الأماكن التي نشأت فيها هذه الموروثات قبل أن يعمد المحرر التوراتي إلى ضمها في موروث واحد من أجل التوكيد على الأصل المشترك لسكان المرتفعات الفلسطينية.

على أن المسألة تزداد تعقيداً عندما نتأمل في المعنى الكامن وراء تغيير الأسماء. فقد غيَّر الرب اسم أبرام القادم من حران إلى إبراهيم (أو أبراهام بالعبرية)، وبعد ذلك غيَّر اسم يعقوب المولود في الجنوب إلى إسرائيل، وهو الاسم الذي صار علماً على قبائل الشمال. فهذا التغيير في الأسماء يعني في رأينا وجود موروثين في كل حالة تم جمعهما في موروث واحد، فأبرام

من حيث الأصل هو غير إبراهيم، ويعقوب هو غير إسرائيل. فنحن والحالة هذه أمام أربع سلاسل قصص مستقلة اندمجت في سلسلتين هي سلسلة أبرام – إبراهيم، وسلسلة يعقوب – إسرائيل، جرى الربط بينهما من خلال ابتكار شخصية إسحاق التي تبدو باهتة ومصطنعة، ولم تقم بإنجاز مهم، أو ترتبط بأي حدث بارز.

ولنبتدئ بالاسم أبرام الذي وفدت قبيلته إلى مناطق المرتفعات من حران، إن نص سفر التكوين ١١ يخبرنا بأن أسلاف أبرام حملوا على التوالي الأسماء: سروج، وهو الجد الأعلى، وناحور الجد المباشر، وتارح أبوه. ويبدو أن أسماء العلم هذه كانت مسميات لمواقع جغرافية سكنتها قبائل تسمَّت بها في المناطق القريبة من حران في حوض البليخ. وقد ورد ذكر هذه المواقع في السجلات الآشورية التي ترجع إلى الفترة ما بين القرن التاسع والقرن السابع قبل الميلاد، وذلك بصيغة تراخ (تارح)، وسَروجي (سروج)، وناخورو (ناحور). ويبدو أن هذه الجماعات كانت تعتقد بوجود صلة نسب بينها، وأن أبرام كان ينتمي إلى واحدة منها وهي قبيلة تراخ أو تارح باللفظ التوراتي.

وفيما يتعلق بالاسم أبرام، فقد كان اسمَ علمٍ معروفاً في المنطقة السورية، ونجد أقدم أشكاله في نصوص مدينة إيبلا التي ترجع بتاريخها إلى نحو عام ٢٤٠٠ ق.م، وذلك بصيغة أبرامو. كما نجده بصيغة إبريوم كاسم لأحد ملوك إيبلا. وبين أسماء الأعلام في نصوص إيبلا وفي نصوص مدينة ماري على الفرات التي ترجع بتاريخها إلى نحو عام ١٨٠٠ ق.م، نعثر أيضاً على اسم إسماعيل الابن الأكبر لأبرام، وذلك بصيغة إش-ما-إيل.

وأبرام هذا، أو القبيلة التي اعتبرته سلفاً لها والتي جاءت من حران قد حلت في المنطقة الوسطى من المرتفعات فيما بين شكيم (= نابلس) وبيت إيل إلى الجنوب منها. ولذلك يقول لنا محرر سفر التكوين بأن إبرام قد حلَّ لدى وصوله إلى كنعان أولاً في شكيم حيث بنى مذبحاً للرب، ثم انتقل فأقام عند بيت إيل حيث بنى هناك مذبحاً آخر (التكوين ١٢: ٥-٩). وبعد ذلك ارتحل نحو الجنوب فأقام في حبرون، وهناك غيَّر الرب اسمه من أبرام إلى إبراهيم. وبهذه الطريقة، أي تغيير الاسم، فإن المحرر التوراتي يدمج بين موروث شمالي عن أبرام سلف القبائل الشمالية، وموروث جنوبي إن إبراهيم سلف القبائل الجنوبية.

هذا ويشفُّ الاسمان أبرام وإبراهيم (أبراهام بالعبرية) عن طبيعتهما كاسمين لسلفين مؤسسين، فكل اسم يتألف من مقطع أول هو «أب» (وهي كلمة تعني "والد" في كل اللغات السامية الغربية) مضافاً إلى اسم رام أو رهام. وهنا يلفت نظرنا بشكل خاص وجود نص هيروغليفي على نصب تذكاري تركه الفرعون سبتي الأول في حملته على فلسطين تم العثور على بقايا منه في موقع بيت شان (بيسان الحالية) في وادي يزرعيل (مرج ابن عامر) الفاصل بين المرتفعات الوسطى ومرتفعات الجليل، يعدد فيه الفرعون المدن والقبائل التي أخضعها الملك، ومن بينها قبيلة تُدعى رهامو، من المحتمل أن تكون هي المجموعة البشرية التي تركت موروثاً عن سلف مؤسس يُدعى أب – رهام، على الرغم من عدم ورود اسم مثل هذه القبيلة في الرواية التوراتية.

وفيما يتعلق بيعقوب، فإن تغيير اسمه إلى إسرائيل ينطوي في رأينا على وجود موروثين أيضاً، واحد يخص سلفاً مؤسساً لمجموعة جنوبية يُدعى يعقوب، وآخر يخص سلفاً لمجموعة شمالية يُدعى إسرائيل، قام المحرر التوراتي بدمجهما عن طريق الدمج بين الاسمين من أجل تدعيم فكرة وحدة الشمال والجنوب. وأغلب الظن أن هاتين المجموعتين كانتا موجودتين في المنطقة الفلسطينية قبل الدخول المفترض للقبائل العبرانية. ففي سجلات الفرعون تحوتمس الثالث يرد ذكر عدد من المدن والمناطق والقبائل التي أخضعها الفرعون في فلسطين، ويظهر بينها الاسم «يعقوب إل» كدلالة على منطقة لا نستطيع تحديد موقعها بدقة. ويبدو أن المجموعة البشرية التي سكنت هذه المنطقة كانت تنسب نفسها إلى سلف يدعى يعقوب.

ومن جهة أخرى، فإن الاسم يعقوب كان من أسماء العلم الساميَّة التي شاعت في عصر البرونز الوسيط (١٩٥٠–١٥٥٠ ق. م). ولدينا ملك من ملوك الهكسوس الساميين الذين حكموا مصر في عصر البرونز الوسيط يُدعى يعقوب أل (قارن مع يعقوب إل المذكور آنفاً). وكذلك الأمر فيما يتعلق بالاسم إسرائيل الذي ورد بين أسماء الأعلام في نصوص مدينة إيبلا نحو القرن ٢٤ ق.م، وذلك بصيغة إش–را–إل، وفي نصوص مدينة أوغاريت نحو القرن ١٤ بصيغة يسرائيل. وقبل الوصول المفترض للقبائل العبرانية، لدينا نص للفرعون مرنفتاح عن حملته على فلسطين في أواخر القرن الثالث عشر، يذكر فيه قضاءه على عدة مدن ومجموعات بشرية في فلسطين بينها مجموعة تدعى إسرائيل.

نأتي الآن إلى الشخصية الهامة الخامسة في قصص الآباء، وهي شخصية يوسف التي شغلت في سفر التكوين حيزاً يزيد عن الحيز الذي شغلته أي قصة أخرى. ولعل أسبقية يوسف على إخوته في الشكل الذي وصلنا لسفر التكوين، يُعزى إلى علو شأن الجماعات الشمالية على الجماعات الجنوبية في أواخر القرن العاشر قبل الميلاد، عندما كانت الشروط الديمغرافية والاقتصادية مؤاتية لتشكيل الدولة في منطقة إسرائيل، بينما كانت منطقة يهوذا على الحالة التي وصفناها آنفاً من التخلف والتخلخل السكاني.

كان يوسف على ما يبدو بطلاً ملحمياً في ماضي الجماعات الشمالية، وكانت أكبر قبيلتين شماليتين وهما أفرايم ومنسي تحتفظان بموروث يرجع بنسبهما إلى هذا السلف المؤسس، مستقل من حيث الأصل عن موروث السلف المدعو إسرائيل الذي تنتمي إليه قبائل شمالية أخرى. وخلال فترة التقارب التي قادت إلى تشكيل الدولة الشمالية التي أسسها الملك عُمري في مطلع القرن التاسع قبل الميلاد، اعتُبر يوسف ابناً لإسرائيل. وعندما علا شأن هاتين القبيلتين في دولة إسرائيل الناشئة، صارت قبائل الشمال تُدعى بشكل جمعي «بيت يوسف» (راجع على سبيل المثال سفر صموئيل الثاني ١٩: ٢١)، كما دُعيت أيضاً بالاسم أفرايم ربما لأن سلالة الملك عُمري كانت تنتمي إلى هذه القبيلة. وعندما قام المحررون التوراتيون بدمج الموروث الشمالي بالموروث الجنوبي، واعتبروا أنَّ السلف إسرائيل هو السلف يعقوب نفسه، جُعل يوسف الابن الحادي عشر ليعقوب، وصارت قبائل المرتفعات الفلسطينية تنتمي بمجملها إلى سلف واحد هو إبراهيم لا إلى سلفين. ولعل المخطط التالي يلخص هذه الشبكة من العلاقات الكامنة وراء الشكل الأخير لسفر التكوين.